الاكتئاب والاخلاق

بقلم الدكتور سليمان بشير

ملخص المحاضرة التي القيت في جامعة بيرزيت ضمن سلسلة محاضرات العلوم الاجتماعيه في ايارسنة ١٩٧٧.

تشكل مسالة الاخلاق احدى نقاط التقاطع الهامه ، من المنظور الظاهراتي (الفينومينولوجي) لاسس التجريد العقلاني (الموضوعي) بشموليتها وتخطيها من ناحية ، وللطفرات الممكنة الفاعله (الذاتية) بخصوصيتهاوجزئيتها من الناحية الاخرى . وهذا الجماع الفاعل بين شقي النقيضين المتكاملين شكلا ومضمونا هو ما يعطي المسالة الاخلاقية جوهريتها وهامشيتها (وبشكل جدلي) في ان واحد

اما جوهريتها فانها تتحتم اساسا من كونها الداله الاساسية للروابط الفردية وللمعايير الملموسة والمدركه التي تكثف تلك الروابط (موضوعيا) في الاطر والتشكيلات الاجتماعية المختلفه . ومن هذا المنظور ترانا نعيش حياة يوميه تلعب فيها دور الذات الفاعله . غير ان ادركنا لفاعليتنا تلك والذى يحتم تخطينا لها زمانا ومكانا يبرز مسالة جزئيتية (وهامشية) وجودنا كموضوع اى كجزء ذاتي فاعل يشكل في نفس الوقت جزءا من كل موضوعي فاعل على مستوى ادراكنا له (او بما معناه "سقوطنا" بالنسبة للوجوديين)

وهذا التخطي يبرز بعدا اخر لمسالة هامشية السقوط المتضمن في وجودنا المدرك كموضوع . فعلى الرغم من "نشوة الخلق" التي نحياها في استغراقنا الذاتي في نشاطنا اليومي ، الذى يشمل بالضرورة اناس "واشياء" خارجة عنا ، وبسبب ذلك "الخروج" فاننا ندرك ايضا ان هنالك عوامل اخرى لا نستطيع التحكم فيها (اى ادراكنا لذاتنا كما يسميه الوجوديون) . من تلك العوامل ما هو اساسي و "اساسي اكثر" ، منسوبا الى درجة ضبطنا وتوجيهنا (اى خلقنا) لفعاليتنا تلك ، التي تخرجنا حتما من حيز ذاتنا الضيق ، وتجعل ضيق ذلك الحيز ، ومعه العالم الخارجي باسره ، امرا نسبيا ليس الا . خذ مثلا محاولتنا التحكم في حالة الطقس . من الواضح هنا ان عامل الطقس امر خارج عن وجودنا الفيزيولوجي على الرغم من انمنسوب اليه في الاساس — اى الى درجة حرارة الجسم . ومع ذلك ففي بحثنا عن وسائل التدفئة لاختزال ذلك الخروج خروج عن معطياتنا الفيزيولوجيه ذاتها (ابتداء باللجوء الى المطرةوانتهاء باختراع احدث وسائل التدفئة)

وتواجد هذا الخروج وذلك الاختزال المتحكم (والخالق) للنفي ذاته في كيان ذاتي فاعل (الذى هو نحن) هو عين الجدل. غير ان فاعليتنا الحياتيه الملموسه هي ما تعطي ذلك الجدل مضمونه المادى ايضا (واذا شئتم تحول دون حصر حياتنا في نموذج مثالي مجرد ترتبط مركباته بعلاقة استنباطية مجرده على الطراز الذى يصوره لنا السوسيولوجيون وعلماء النفس المثاليين عادة) .

هنا نصل الى مرحلة يمكننا فيها تقديم صياغة محددة للمفهوم المادى الفاعل لمسالة الاخلاق كما يراها الماركسيون . وهذه الماديه الفاعله المتحتمه من مقتضيات سعينا وراء متطلبات حياتنا اليوميه خارج وجودنا ككيانات عضويه قائمه في ذاتها هي ما يدخلنا في اطار "المجتمع — المحيط" من ناحية ويعطي ذلك الوجود خاصية نسبية معينه (بادراكنا الخارج عنه) من الناحية الاخرى . من هنا تتضح عدة قضايا اخرى هي من صلب المفهوم المادى لمسالة الاخلاق الاولى : اتخاذ تعبير الاخلاق (ان كان بمعنى Ethics او Morals) مفهوم الانغماس الفاعل الذى يشمل جميع معاييرنا "الاخلاقيه" والتي تنبع في ذاتها من تحديدنا لمواقف معينه من اشياء واناس اخرين نتيجة لذلك السعي الذى تقوم به والثانية : هامشية تلك المعايير والمواقف المتحتمه من كونها دالة لمتطلبات السعي الاساسية التي هي ماديه اساسا (وبتعبير ماركسي كون تلك المواقف عباره عن بنى فوقيه بفرزها سعينا . معا وراء وسائل انتاجنا والتشكيلات الاجتماعيه التي تربطنا سويه من خلال عملية السعي تلك) والثالثه (والتي تنبع حتما من الثانية) نسبه تلك المواقف للواقع المادى الخاص الذى نحياه "الان" "وهنا" وكون تلك النسبه مشروطه بقوى خارجه ومدركه (اى موضوعيه) ، لعدم تحكمنا كذوات في عالمنا الخارجي (بالشكل المطلق الذى يصوره لنا المثاليون) الذى يتخطانا زمانا ومكانا .

ومن هذه القضايا الثلاث تتحتم عدة استنتاجات هي من صلب الفهم التاريخي للطرح المادى لمسالة الاخلاق . الاول : وجوب الطرح المتكامل لهذه المساله واستحالة عزلها عن حيز فاعليتنا او تحديدا الظرف الاجتماعي الخاص الذى يفرزها . مجموع القيم والمعايير التي نحملها لا تشكل سوى داله للواقع المادى — الاجتماعي الذى نحياه و لا يمكن لها ان تكون مطلقة ومعزولة عن فاعليتنا في اطر ذلك الواقع . والثاني : استحالة الابقاء على تلك المعايير بشكل ازلي مطلق (كما يفهمها المثاليون) بسبب تلك الفعالية الايجابية ايضا .

ثم ان تلك النسبيةالمتكامله التي تحتم طرحا متكاملا لمسالة الاخلاقيات كجزء منفاعل يؤثر ويتاثر بشكل جدلي بالظرف العيني والملموس (ذى الاساس الفيزيائي والامتدادات والمضاعفات الاجتماعيه والسياسيه . الخ) ، الذى يحدد اخلاقياتنا كجزء من فعاليتنا وكدالة لها ، تفسر الخطوره الكامنه في اية محاوله لتقديم تعريفات مطلقه ، تماما كالخطوره الكامنه في محاولات الفلاسفه المثاليين (من ارسطو وحتى هيجل) تعريف تعابير ومقولات الانسان الحرية ، الحضاره ، الجمال ، والسعاده ... الخ .. بالشكل المطلق .

ثم ان عملية الفرز (والمضمون) الاجتماعي لمجمل مواقفنا الاخلاقية التي تحول تلك المواقف الى ابنية وتشكيلات فوقية خاصة بقاعدة علاقات الانتاج والتشكيلات الاجتماعية والاقتصادية التي تشكل بدورها نتيجة لسعينا اليومي وراء متطلبات حياتنا (والتي تحتم بدورها تقييم تلك العلاقات والتشكيلات كجزء من اية محاولة لفهم تلكالمواقف) ، هي بالذات ما يعطي تلك المواقف صفتها الهامشيه الفوقيه .

وهذه الهامشية (او الفوقيه) ربما تفسر قلة الادبيات الماركسية التي تناولت هذا الموضوع بشكل مستقل ومميز . ذلك لان الماركسيه (خلافا للفكره الشائعه) لا تتخطى كونها نهج فكر يطمح الى استثمار واع ومتكامل لشموليات عقلانية يحتمها ذلك الوعي وتشكل في الاساس محصلات لفاعلية الخصائص الجزيئية التي ترتقي بتلك الجزيئيات (المولاكولارات) لولبيا وعن طريق التكرار الدائرى الدافع والمرتقي عاموديا الى مستوى الشموليات الموضوعية ذاتها . الماركسيه اذا ليست دليلا لنخبه محدوده من هواة الوعي الافذاذ لان تلك الشموليات الواعيه لاتشكل هدفا في حد ذاتها ، اى خارج نهج فكرعلمي يمكننا من استخلاص التفاعلات الجزيئية ذاتا والمتكامله موضوعا ودفعها بشكل مكثف الى درجات ارقى (بشكل لولبي يجمع بين التكرار والطفره ، بين المالوف والحديث) للوجود البشرى الواعي .

من ذلك يتضح ان وعي العالم الملوس من حولنا يشكل احد وجوه تقييمنا الاخلاقي في اطار فاعليتنا داخل ذلك العالم في نظر نهج الجدل المادى . غير ان لذلك الوعي لا يمكن ان يكون اى وجود في ذاته ، من حيث انه لا ينفصل عن وجودنا المادى الفاعل ووجودنا الفاعل في ذاته . وتكرارية الظواهر المحيطة بنا ، تحتم وجودا موضوعيا ما خارج استغراقنا الذاتي الحيوي في التحول الفاعله التي نقوم بها . وتلك القوى الموضوعية في تشكيلات من الوعي ، ليست سوى المعطيات الماديه الضروريه لاستمرار بقائنا الفيزيولوجي . ولا ينكر الماركسيون ان التشكيلات تكتسب قوة دفع معينه يحتمها عنصر التكرار (كالدين والايديولوجيا وظواهر التضحية بالنفس والاستشهاد) غير ان قوة الدفع تلك تفقد زخمها تدريجيا بانفصال مقوماتها الماديه الاساسيه (وربما يكون ذلك بشكل اسرع كاضطرار بعض المسيحيين اكل لحوم الاموات عند اضطرار طائرتهم للهبوط في احدى صحارى امريكا قبل عدة سنوات ، والفتاوى التي قدمها الفاتيكان)

غير اننا لا نحصر النقاش هنا في التبريرات التي يحتمها هذا الظرف الطارئ او ذاك . فوجودنا الاخلاقي (على الرغم من كونه احد المعطيات الاساسية) هو اجتماعي معين ينشأ عن ورود عوامل ومعطيات اساسية (كالمناخ والبيئه) تحدد معالم ذلك الحيز بشكل تفاعلي يشابه النهج الذى اشرنا اليه سابقا . وفاعلية ذلك الوجود وادراكنا الذاتي لها ، والتغيرات البنيويه الاجتماعيه التي تمس تلك الفاعليه مع المعطيات المشار اليها هي ما نحياه في هذا العالم كما قلنا . ووعينا هذا الوجود الاخير ، ما نحياه له "هو جزء من اخلاقياتنا الفاعله فيهوالمتفاعله

واخلاقياتنا ، من حيث كونها وعينا الشامل لذلك الوجود تنتظر الى مركبات متكامله (وليس بالشكل المطلق الذى يصوره المثاليون) هي وعينا الذاتي ووعي تلك المعطيات الخارجيه مضافا اليها وعي المحصله الموضوعيه التي تفاعل ذلك في كيان عام نشكل نحن جزءا فاعلا واعيا له وهذه التركيبه المتمازجه الحاصله من تفاعل وجودنا الذاتي والاجتماعي ووعي كل واحد على حده ووعي كل واحد تتحدد اساسا في التشكيلات والاطر الاجتماعيه التي تتمحور حول سعينا وراء متطلبات الابقاء على وجودنا الذاتي ووسائل الانتاج اللازمة لذلك الوجود . اقول "اساسا" لان زخم فاعله يكون لها استمرارية معينة حتى بعد فقدانها الماديه التي افرزتها . فالتشكيلات والاطر الاجتماعيه اذن عنمحاولتنا التحكم في تلك الوسائل . في ظرف ما

لن نتطرق الى الدور الذى تلعبهالمعطيات الاساسية في التشكيلات ، فذلك من مهام علوم البيئه والمناخ والطقس بشكل عام . المهم بالنسبه لنا هنا هو علاقات الاستثمار بتوجيهنا الواعي والهادف في تسخيرنا لوسائل انتاجنا اقول ان وعينا تلك العلاقات هو حجر الاساس في الطرح المتكامل والنسبي كما قلت سابقا ، لمسالةالاخلاق طرحا للمحاور الاساسية التي تدور حولهفي ليس فقط تلكالعلاقات التغيرات البنيويه الحاصله فيها نتيجة للتغير النوعي في وجودنا الكلي والاجتماعي والواعي .

واحدى هذه المحاور الاخلاقية الاساسية هي مسالة الاستثمار الاجتماعي حول امتلاك وسائل الانتاج من ناحية وفرز العلاقات الاجتماعيه والبنى الفوقيه لتلك التشكيلات بشكل ينسجم مع الامتلاك ويكرسه في آن واحد . اى انه من الممكن اختزال مسالة الوعي الطبقي كمسالة اخلاقية ايضا من حيث استغراقنا الفاعل في عملية الصراع تلك ووعيها .

غير ان البعدالواعي لذلكالصراع يبقى ناقصا اذا ما اعتبرنا عملية "فهم" ذلك الصراع فقط . ذلك لان الوعي في حد ذاته لا يشكل هدفا تصويريا في ذاته وانما هو خلاصة خبرة وتكثيف لتلك الخبره وهذا التكثيف لعملية التحول الطبيعه والتيتشكل عنصرا ايجابيا فاعلا فيها) الهادف هو ما يسمى الايديولوجيا الطبقيه . من هنا ينضح ما نقصد ان وعي الصراع يشكل احد المحاور في عملية التحول (التي نعيشها ايضا بشكل تكرار لولبي — ومنهذا المنظور المتقدم للزمن) وذلك لورود عوامل اخرى في عملية تكون خارجة نوعا ما تحكمنا فيها كالظواهر الطبيعية الاساسية الاخرى وصراعنا مع الطبيعة ايضا .

قصة قصيرة

المتطوعون

الى تلك التي لم تبك ولن تبكي ابدا لانها امرأة تعلمت كيف تقسو على نفسها..

فرد الليل جناحه على القرية الوادعة، فاحتضن بيوتها المتآكلة بحنان ورفق كما تحضن الام وليدها الوحيد .. فاخذت جلبة الطرقات تتلاشى.. بينما بدات المشاعل تتوهج. ثمة بعض السيارات تسير بأقصى سرعة محملقة عيونها كعيون التماسيح البليدة ، بكل وقاحة، مثيرة الرعب في نفوس الكبار ومحاولة مسح البراءة من عيون الاطفال.. وهذه السيارات الرمادية اللون تزور القرية باستمرار وعندما يراها الاطفال يرتدون مذعورين: يهربون مع الزقاق ويسمعون "ابو عبد" في صومعته يقرأ: "واعدوا لهم ما استطعتم من قوة..." ولا يكترثون ادنى اهتمام..

اشعر بالقلق ازاء تاخره عن عودة هذه الليلة، حادثت "فدوى" بها وابتلعت ريقها وعادت الى بيتها.. مرت نسمات من الهواء المضطربة .. بينما اخذ نقيق الضفادع في الوادى المجاور يتعالى، وازيز الصراصير راحيتناهى الى مسمعها وكانها تسمعه لاول مرة:

كم هي سعيدة هذه الصراصير، مع كل امسية تبدا بغنائها بجذل وسرور دونما ملل او كلل.. ايه.؟ قالت ذلك ،في حين اعلنت اشارة الوقت تمام الثامنة،فاسرعت لتناول المذياع لتجد امها — كعادتها دائما في مثل هذه الحالات.. — تبكي بهدوء وصمت كانها لا تريد احدا ان يسمعها..

ولكن اخاها لم يعد طوال تلك الليلـــــة..

امام باب الجامعة الخلفي تجمع الشبان والشابات يقراون صحف الصباح ويدخنون سجائرهم في انتظار موعد الانطلاق للعمل..

الساعة الان الثامنة الا الربع "وفدوى" لم تحضر كعادتها، فلقد كانت تاتي باكرا وقبل اى واحد فينا قال "مشهور" لزميله منتظرا اجابة او تعليل.. ولكنه بقي صامتا يتامل

له كعلامة استفهام كبيرة بسبب انحناءة ظهره والاخر يشتم هـــذه العيشة.. ، ثم افاق ليسال بدوره :— "ومنى" هل نسيتها؟ انها لـــم تحضر ايضا..

سارت الفرقة صوب مكان تجمع الفرق الاخرى لتضيف سطرا جديدا في سجل ارض الوطن، بصمت وتصميم.. ساروا وعلامات التساؤل على وجوههم باحثة عن "فدوى" و "منى"..

ازداد تساقط قطرات العرق مع تسلق الشمس لقبة السماء وتشديد ضربات المعاول.. وسمع صوت "مشهور" — معقبا على قول زميله "همّة يا شباب.." — مؤشرا بيديه: عندما يرفض الزمن صوتنا الحقيقي.. فاننا نجد انفسنا مضطرين لتغييره والعمل على اثباته.

ففهم الجميع ما قصده بهذه الالفاظ القلائل ، لانهم تعودوا على طريقة كلامه، فهذه عادته دائما: فهو يحكي القليل ويعني الكثير. فعندما استدعوه وهددوه وحاولوا منعه من القيام بمثل هذه الاعمال ، قال لهـــم ببساطـــه:

اجعلوها تهمة.. وحاكموني عليهـــا..

عندها بصقوا بوجهه.. صدقوني هذه هي الحقيقة، فانا لا اكذب، ولماذا اكذب اصلا؟ — وعندما تدحرجت كرة

لزجة كريهة.. فزاد حقده عليهم وتصرف بنزق فشتم اعراض امهاتهم.. وعندما يغني في "السامر" فانـــه يغني اغان ذات معنى — وكعادته — فهي مقتضبة.. وعندما غنى:

"يا صاحب الطير قوم اسهر على طيـــرك... عجّل عليه بالعلـــف ليعلفه غيـــرك"

عندها ، قال له "ابو العبد": الله يخرب بيتك يا هالولد شو شاطر

شدد "المتطوعون" ضرباتهم على الارض كانهم يريدون ايقاظها او ايقاظ من يقطنون عليها. فجاة توقف الجميع عن العمل، توقفوا على ذلك الصوت ، نعم انه نفس الصوت الحنون الذى كان يشجعهم عندما يدب التعب في ابدانهم.. ولكنه الان جعل صدورهم تغلي غضبا وحقدا:

اخي في السجن.. وعرفت ان "منى" كذلك.. قالت "فدوى" بكل ثقة.. بينما راحت تتفحص وجوه المشاركين بالعمل تارة، وتنظر الى ما استجوه في سوبعاتهم القليلة تاره اخرى.. فلاحظت شتلة الزيتون التي غرسوها من قبل سويا ، والرياح تداعبها برفق وحنان، بينما عاد بقية المتطوعيـــن لعنايتها واروائها بالماء.. وراح "مشهور" يردد بصوته الحنون اغنيه الطيـــر.

صدى حلب

□ في باريس صدر "الجامعة — من الازمة" من تاليف م. ديوفو، شفارتس. ويتضمن الكتاب اسئلة تتعلق باوضاع التعليم العالي في فرنسا. والاشارة الى ظواهر الازمات والتغييرات التي بدأ الشيوعيون الفرنسيون تنفيذها في التعليم وتشديد الرقابة على الطلابية ومنظمات الطلبة في المعاهد.

□ عن منشورات "التقدم" موسكو كتاب بعنوان للمؤلف ل.ب. موسكفين بعنوان "الطبقة العاملة" ويتحدث الكتاب عن الاتحادات البروليتارية والحركة العمالية المعاصرة هذا. ويخصص الكتاب للاعمال والنشاطات المشتركة للعمال ضد الاحتكارات النضال ضد الاحتكارات تحليل للوضع الاقتصادى الاجتماعيه التي سادت الحكومي الاحتكاري السياسيه التي تحكم